

الفصل الثاني عشر

أخلاق المرأة المسلمة في القرآن الكريم

البحث الأول:

خُلِقَ الإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى

أختي المومنة:

الإخلاص لله تعالى فريضة إيمانية كبرى، عليها ترتكز الطاعات والعبادات. لقد ذكر القرآن الكريم «إخلاص الدين لله» في مواطن كثيرة، كقوله في سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ سَبِيلُ الْإِيمَانِ﴾^(١).

الدين الخالص هو الدين السليم الطاهر، الذي لا تشوبه شائبة من شرك أو رياء، ويقال: أخلص الإنسان دينه لله، أي: جعله كله ابتغاء وجه الله، ووقفه عليه محضاً خالصاً من كل عيب أو دنس.

ويقول القرآن في سورة النساء: ﴿إِنَّ الدِّينَ الْقَائِمَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾^(٢) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾^(٣). ويذكر تفسير المنار أن إخلاص الدين لله هو أن يتوجه الإنسان بدينه إلى ربه وحده، لا يدعو من دونه أحداً، ولا يدعو معه أحداً، لا لكشف ضرر، ولا لجلب نفع، ولا يتخذ

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥، ١٤٦.

من دونه أولياء يجعلهم وسطاء عنده، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصاً له وحده، لا تتوجه فيه النفس إلى غيره، ولا يسأل اللسان سواه، ولا يستعان - فيما وراء الأسباب العامة - بمن عداه.

ويتعرض ابن جرير الطبري للآية فيقول فيما يقول: وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رياء الناس، ولا على شك منهم في دينهم، وامترأ منهم في أن الله محصٍ عليهم ما عملوا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه، وجزاء المسيء على إساءته، أو يفضل عليهم ربهم فيعفو، متقربين بها إلى الله، مرئيين بها وجهه، فذلك معنى إخلاصهم لله دينهم.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين، بعد توبتهم وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم له، مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الله الدرك الأسفل من النار. ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يقول: وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم دينهم له، على إيمانهم ثواباً عظيماً، وذلك درجات في الجنة.

ويقول الله تعالى في القرآن المجيد في سورة الأعراف: ﴿قَدْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (١).

ويعلق تفسير المنار على هذا النص الكريم بقوله: والمعنى: أعطوا توجهكم إلى الله تعالى عند كل مسجد تعبدونه فيه حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل، سواء كانت العبادة طوافاً أو صلاةً أو ذكراً أو فكراً، وادعوه وحده مخلصين له الدين، بأن لا تشوبوا دعاءكم ولا غيره من عبادتكم له بأدنى شائبة من الشرك الأكبر، وهو التوجه إلى غيره من عباده المكرمين، كالملائكة

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

والرسل والصالحين، ولا إلى ما وضع للتذكير بهم، من الأصنام والقبور وغيرها، ولا من الشرك الأصغر، وهو الرياء وحب اطلاع الناس على عبادتكم، والثناء عليكم، والتنويه بذكركم فيها، وكانوا يتوجهون إلى غيره زاعمين أن المذنب لا يليق به أن يقبل على الله وحده ويقيم وجهه له حنيفاً، بل لا بد له أن يتوسل إليه أحد من عباده الظاهرين المكرمين، ليشفع لهم عنده ويقربهم إليه زلفى، وهذا من وسواس الشيطان.

ويقول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ (١).

ويتحدث الفخر الرازي عن هذا النص الكريم، فيقول ضمن ما يقول: إنه تعالى لما بين في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب، أردف هنا بعض ما فيه من الصدق، وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص، فهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ لأن قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾، يفيد الحصر، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور، ويتنفي عن غير المذكور. ثم أضاف: أما العبادة فهي فعل أو قول، أو ترك فعل أو ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله.

وأما الإخلاص فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال، فإن حصل منه داع آخر فيما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر، أو معادلاً له أو مرجوحاً، وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط. وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٢-٣.

راجحاً على الجانب الآخر، فقد اختلفوا في أنه: هل يفيد أم لا؟ وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً، ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص، لأن قوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١).

وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهي الوجوه الداعية للشرك، وهي أقسام: أحدها: أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل. وثانيها: أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار. وثالثها: أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيراً في إيجاب الثواب أو دفع العقاب. ورابعها: وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة، وهذا إنما يعتبر على قول المعتزلة.

ويعود الذكر الحكيم ليؤكد الحث على فضيلة الخلاص لله والدعوة إليها،

فيقول:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۗ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۗ قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي ۗ فَاغْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾^(٢). ونلاحظ هنا أن السورة قد بدأت الأمر بإخلاص الدين، ثم جاءت هذه الآيات تأمر الرسول ﷺ - ومن ورائه أتباعه - أن يعبد الله مخلصاً له الدين، وأن يقول: الله أعبد مخلصاً له ديني، وقد يظن ظان أن هذا تكرار لا مسوغ له، ولكن الرازي ينفي هذا الظن بأنه لا تكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالإتيان بالعبادة، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله، وذلك لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر، يعني: الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه.

ومن عظيم شأن الإخلاص أننا نجد القرآن المجيد ينسبه إلى أنبياء الله ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيقول في سورة مريم: ﴿وَأَذَكَّرُ فِي

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة الزمر، الآيات: ١١-١٥.

الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿١﴾. وكلمة «مخلصاً» فيها قراءتان، الأولى بفتح اللام عند حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، معناه: أخلصه الله وجعله مختاراً حالصاً من الدنس. والقراءة الثانية بكسر اللام، عند ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والمفضل عن عاصم، ومعناه: الذي وحد الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسة.

وقال الله تعالى في سورة يوسف عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّعَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنَّا الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ ﴿٢﴾. وفي كلمة المخلصين قراءتان أيضاً.

وفي سورة ص: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا إِزْهَبَ رِيسَتَهُ وَتَعَوَّىٰ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ بِنَالِهِمْ يَكْفُرَىٰ الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴿٣﴾. وأخلصناهم أي: اخترناهم واصطفيناهم، والخالصة هي الخلعة والصفة، أي: اصطفيناهم بسبب خلعة خاصة فيهم، هي تذكيرهم بالدار الآخرة، وذلك شأن الأنبياء.

ولجلال فضيلة الإخلاص لا يستطيع الشيطان أن يسيطر على المخلصين من عباد الله تبارك وتعالى، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة الحجر عن الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ يَا مُؤْمِنِينَ لَا تُؤْمِنُوا بِهِمْ وَلَا يُغْنِيَنَّكُمْ آمِينُنَّ ﴿٢٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُتَّخِصِينَ ﴿٤١﴾ ﴿٤﴾. ثم قال الله تعالى بعد قليل يخاطب إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٥﴾. وفي سورة ص يقول القرآن عن الشيطان: ﴿قَالَ فِعْرِيكَ أَتُؤْمِنُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُتَّخِصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴿٦﴾.

ولقد تكرر قول الله تعالى في سورة الصافات عدة مرات، وفي هذه المرات استثنى الله هؤلاء المخلصين، ليكونوا بمنجاة من مواقف الإثم ومواطن السوء، وليفوزوا بالخير والنعيم في الدنيا والآخرة.

(٤) سورة الحجر، الآيات: ٣٩-٤٠.

(١) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٦) سورة ص، الآيات: ٨٢-٨٣.

(٣) سورة ص، الآيات: ٤٥-٤٧.

يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَمَا تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٣١﴾ تَوَكَّلْهُمْ وَهُمْ شُكْرُونَ ﴿٣٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٣٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٣٥﴾ يَبَسَّاءَ لَدُوٍّ لِلشَّدِيدِينَ ﴿٣٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوُونَ ﴿٣٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الْغُرُفِ عِينٌ ﴿٣٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴿٣٩﴾﴾ (١). ويا له من ثواب جليل ونعيم عظيم.

ويقول في السورة نفسها: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (٢). ثم يقول فيها أيضاً: ﴿فَتَكَلَّبُوهُ فَاذْهَبْهُمْ لَمْحَضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ (٣). ثم يقول كذلك: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥١﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ (٤). ثم يقول أخيراً: ﴿وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّا عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ (٥).

وللإخلاص ثمرات كثيرة جليلة منها ما يلي:

أولاً: محبة الله تعالى لمن أخلص له، فقد جاء في الأثر أن الله تبارك وتعالى يعطي الإخلاص لمن يحبه كما يقول الرسول ﷺ فيما يرويه ابن ماجه: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ» (٦).

ثانياً: قبول الله تعالى من المخلص، لأن الحديث يقول: «إِنِ اللَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ».

ثالثاً: انقطاع الوسواس عن الإنسان، ولذلك يقول أبو سليمان الداراني الصوفي: «إِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ كَثْرَةُ الْوَسْوَاسِ وَالرِّيَاءِ».

(١) سورة الصافات، الآيات: ٢٨-٤٩.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٧٣-٧٤.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٢٧-١٢٨.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ١٥٩-١٦٠.

(٥) سورة الصافات، الآيات: ١٦٧-١٦٩.

(٦) وإسناده ضعيف، ضعيف سنن ابن ماجه، ص ٧.

رابعاً: صرف السوء والفحشاء عن الشخص المخلص، ولعل هذا بعض ما نفهمه من قول الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّرُوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١).

خامساً: تفجر الحكمة من المخلص، فقد قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

سادساً: نصر الله للمخلص، لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم».

سابعاً: زيادة مضاعفة الحسنات، فإذا كان الله تبارك وتعالى قد وعد - وهو الكريم وصاحب الفضل العظيم - بأن يثيب الحسنات بأضعافها وقال: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا﴾^(٢)، ووعد بأكثر من العشرة إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما فوق السبعمائة، فإن هذه الزيادة في الأضعاف تنمو بحسب تمكن الإخلاص من نفس المؤمن، فكلما زادت مكانته في الإخلاص علواً، زادت مثوبته على الحسنات أضعافاً مضاعفة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

ولهذا قال معاذ بن جبل: لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قلت له: يا رسول الله، أوصني. فقال: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل»^(٣) أي: اجعل إيمانك خالصاً مما يشوبه من شهوات النفس، واجعل طاعتك كلها لوجه الله، يصبح القليل من عملك كثيراً مباركاً^(٤).



(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الإنعام، الآية: ١٦٠.

(٣) إسناده ضعيف، ضعيف الجامع الصغير برقم ٢٤٠.

(٤) أخلاق القرآن، ج ٢، ص ١٧٤-١٨٢.

البحث الثاني:

خلق الثبات على الحق

أختي المومنة:

الثبات خلق من أخلاق القرآن الكريم، نحتاج إليه أشد الاحتياج، لأن طريق العبادة والطاعة طويل، لا بد له من ثبات واستقرار، وطريق العمل والسعي الحميد في الحياة طويل لا بد له من ثبات واستقرار، وطريق الحرية والعزة والكرامة طويل لا بد له من ثبات واستقرار، وطريق الأبطال وتحقيق الآمال بكريم النضال طويل لا بد له من ثبات واستقرار، ولذلك نادى الله جل جلاله عباده الأخيار بقوله في سورة آل عمران: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عباده بأن الثبات صفة كريمة من صفات المؤمنين، تحقق لهم عن طريق الاهتداء بهدي القرآن المجيد، وبالإقبال على طاعة الله والاعتصام بحبله وهداه، فقال في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُنَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، وقال في سورة محمد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَعْمُوا اللَّهُ يَصْرِّحْكُمْ وَيُنَبِّتْ أَعْدَامَكُمْ﴾^(٣). ومتى من الله تعالى على عباده بالثبوت فقد تحقق لهم الثبات.

كما أخبر الحق سبحانه بأنه قد منَّ على رسوله محمد ﷺ بنعمة الثبات، وإنما تحقق الثبات لرسول الله بفضل الله، وبما آتاه من وحيه، وبما قص عليه وذكر له في قرآنه الكريم من آيات وأنباء وعظات، ولذلك يقول في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(٤) ويقول في سورة هود: ﴿وَكَلَّا قُضِيَ عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ الرُّسُلِ مَا

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

تَثَبَّتْ بِهِ، فَوَادَكَ ﴿١﴾ ويقول في سورة الإسراء: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٢). فالله تعالى قد أقر رسوله على الحق، وحصنه به، وعصمه من موافقة الكافرين، وكان رسول الله يدرك خير الإدراك فضل الله العظيم عليه في هذا الثبوت، ولذلك كان يدعو فيقول: «اللَّهُمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

ومن المواقف المشهودة التي تحتاج إلى الثبات، وإلى الاعتصام بحبل الله القوي المتين موقف الجهاد ومقاومة الأعداء، ولذلك جاء في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ يَفْعُوْنَ فَأَنْزِلُوا وَأَذَكُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣). والثبات في الجهاد قوة معنوية لها قيمتها، فقد يكون السلاح والعتاد في أيدي المجاهدين، وفيهم الكثرة والقوة الحسية، ومع ذلك يظنون في حاجة إلى ما هو أهم، وهو القوة المعنوية المتمثلة في الثبات، والبصراء بأمور النضال يقررون أن الثبات يكون في كثير من الأحيان السبب القوي والأخير للنصر والفوز، فالجيوش تتقاتل وتتصارع، والأكثر منه صبراً ودواماً واستمراراً هو الذي يتغلب ويفوز، ولعل هذا هو الذي جعل القرآن المجيد يحذر تحذيراً شديداً من ترك الثبات في القتال، ويتهدد من يتنكر لهذا الخلق الكريم بالعقاب والعذاب، فيقول في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالِ أَوْ مَتَعِزًّا لَكُمْ فَتْرَةٌ فَقَدْ نَكَاهُ بِقَضَمٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِسْ أَلْوَيْدٍ ﴿١٦﴾﴾ (٤).

وقد ربط القرآن برباط دقيق بين الثبات الحسي والثبات المعنوي، حين يتوافر الإيمان واليقين لدى أهله، ولذلك قال للمؤمنين في شأن غزوة بدر:

﴿إِذْ يُفَتِّحُكُمُ النَّعَّاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ يُلْقِي عَلَيْكُمْ النُّومَ كَالْغِشَاءِ لِتَأْمِنُوا وَتُسْرِحُوا وَتَقْوُوا ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَلْطِهْرُكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَـ

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٤) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

مَعَكُمْ فَتَتَّبِعُوا آلِيْنَ ءَامَنُوا سَأَتَّبِعُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا قَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢٧﴾ ﴿١﴾.

فالقرآن يجمع هنا بين الربط على القلوب، وهذا هو الثبات المعنوي، وتثبيت الأقدام - وهذا استقرار حسي - فالذين آمنوا بربهم لا يستخفون بأسباب الثبات الحسي، كما لا يستخفون بأسباب الثبات المعنوي، بل يجعلون شعارهم كما ذكر القرآن في سورة آل عمران:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثِيُونَ﴾ منسوبون إلى الرب لإيمانهم وحكمتهم
﴿كَبِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾
﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَكَيْتَ أَقْدَامِنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴿٢﴾.

وكما ذكر في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِيَجْأَلُوا وَجْهَهُمْ لِلدُّنْيَا وَنَسُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ قُلُوبًا كَبُورًا﴾
﴿٢٥٠﴾ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾.

البحث الثالث:

خُلُقُ التَّوَاضُعِ لِلْحَقِّ وَالخَلْقِ

أختي المؤمنة:

لم ترد كلمة التواضع بلفظها في القرآن الكريم، ولكن وردت كلمات تشير إليها وتدل عليها، مما يجيز أن نعد التواضع خلقاً من أخلاق القرآن، فالله تبارك

(١) سورة الأنفال، الآيات: ١١-١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦-١٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٤) أخلاق القرآن، ج ١٠، ص ٩٦-٩٨.

وتعالى يقول في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١) أي: يمشون على الأرض هينين، أو يمشون مشياً هيناً، لأن الهون - بفتح فسكون - هو الرفق والسهولة، والحديث يقول: «أحِبَّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا»^(٢) أي: بدون إسراف أو مبالغة. ويقول: «المؤمنون هينون لئنون»^(٣). ويقال: هان الأمر على فلان، أي: سهل، وفي القرآن الكريم: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ﴾^(٤) وفيه: ﴿وَهُوَ أَقْوَمُ عَلَيْهِ﴾^(٥).

فقوله تعالى عن الأخيار من عباده: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: يمشون متواضعين بسكينة ولين ووقار، وإذا كان الهون - بفتح فسكون - هو اللين والرفق، فإن الهون - بضم الهاء - هو الهوان أو الذل، وهذا من صفة غير المؤمنين، والعلماء يذكرون أن الهوان على وجهين: الأول تذلل الإنسان في نفسه باختياره فيما لا يعيبه، وهذا من شأن المؤمنين، والآخر أن يكون من جهة تسلط متخف به، وهذا من شأن الحقراء، كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾^(٦).

ومن الآيات التي تشير إلى خلق التواضع قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن يَدَيْهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذَلُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا عَلَى الْكَافِرِينَ بِيَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٧).

والمراد بالذلة في الآية الكريمة: الرحمة والشفقة واللين، وليس المراد بها

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) صحيح سنن الترمذي برقم ١٦٢٥.

(٣) حديث حسن، صحيح الجامع برقم ٦٦٦٩.

(٤) سورة مريم، الآية: ٩.

(٥) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

الهُوان، فالمؤمن - كما قيل - ذُلول، أي: عطوف على مستحق العطف، وغير المؤمن ذليل، أي: صاحب هوان.

والعزة على الكافرين يراه بها القوة والغلبة، ولذلك قال عطاء عن وصف المؤمنين في هذه الآية: إنهم للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته. والمقصود هنا طبعاً هم الكافرون المعتدون، لا مجرد الذين خالفوا في الدين دون عدوان.

وكذلك جاء قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (١). والمعنى قريب من معنى الآية السابقة، وذكر القرآن الكريم بعض مظاهر التواضع، فقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَلَّ تَبْلَغَ لِيَلْبَأَلْ طُولا﴾ (٢). وقال في سورة لقمان: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٣) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (٤). والمرح هو: الاختيال والبطر، وتصغير الخد هو إمالة تعاضماً وتكابراً، والمختال هو المتباهي، والقصد في المشي هو الاعتدال فيه، والغض من الصوت هو نقصه وخفضه.

والتواضع ضده التكبر، سواء أكان التكبر بالعلم، أم بالعبادة، أم بالنسب، أم بالجمال، أم بالمال، أم بالقوة، أم بالشهرة، أم بكثرة الأتباع، أم بغير ذلك؛ وإذا كان القرآن الكريم قد حمد التواضع، ووعد بالخير أهله، فإنه قد حمل حملة صارمة على التكبر وأهله، فقال في سورة الأعراف: ﴿سَاءَ صَرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا مَاءً أَبَوْا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْجَهَنَّمَ لَ يَأْتِيَنَّهُمُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (٤). وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.

(٣) سورة لقمان، الآيتان: ١٨-١٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

جَبَّارٍ ﴿١﴾. وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٢﴾. وقال: ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٣﴾.

والتواضع خلق يرتفع في ميزان القرآن الكريم حتى يجعله حلية للأنبياء والمرسلين، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، وحينما وصف القرآن سيدنا رسول الله ﷺ بالرفافة والرحمة والحرص على خير الناس، أراد أن يشعرنا بأنه المثل الأعلى في التواضع. وها هو ذا رب العزة يخاطب نبي الرحمة في سورة آل عمران بقوله: ﴿فِيمَا رَحِمْتُم مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُن لَّهُمْ وَكُورٌ كُنْتُمْ فَتًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَّخِذُوا مِنكُمْ
حَوَالِكًا فَاذْعَبْ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿٤﴾. ويقول له في سورة الشعراء: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ كن رحيماً بهم عطوفاً عليهم ﴿لَئِن أَلْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾.



البحث الرابع:

خُلُقُ البِرِّ والإحسان

أختي المؤمنة:

البر في تعبير القرآن الكريم يفيد معنى الإيمان وما يتبعه من أعمال، فهو يشمل صحة الاعتقاد واستقامة التطبيق، ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة البقرة: ﴿أَلَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ يَمَّكَ الْمَشْرِقِيِّ وَالْمَغْرِبِيِّ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسُّكَّانَ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٦) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٦٨-٧٢.

(١) سورة غافر، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٩.

عَنْهُمْ وَالصَّالِحِينَ فِي الْبُتَّةِ وَالصَّمْرَةِ وَحِينَ الْبُتَّةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾. ولقد رووا أن رسول الله ﷺ سئل عن البر، فتلا هذه الآية الكريمة.

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك - أي تردد - وكرهت أن يطلع عليه الناس». ويقول في حديث آخر: «البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

وهذا هو القرآن الكريم يعطر ذكر البر في مواطن منه، ونحن نرى من جلال مكانة البر أن الله تبارك وتعالى قد جعل لذاته القدسية اسماً مشتقاً من مادته، وهو اسم «البرِّ» فقال القرآن في سورة الطور: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢) أي: العطوف على عباده، الشامل لهم ببره ولطفه ورعايته.

وجعل القرآن المجيد فضيلة البر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين، فقال في سورة مريم عن زكريا عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (٣). وقال في السورة نفسها على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا سَعِيًّا﴾ (٤).

ووصفت السنة المطهرة ملائكة الرحمن - وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون - بأنهم بررة، فقال عليه الصلاة والسلام: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة» يعني: الملائكة.

ومن دقائق التعبير في القرآن الكريم أنه بعد أن عدد أعمال البر الكثيرة الكبيرة في آية البر: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (٥) إلخ. ختم هذه الآية بقوله عن أولئك الأبرار الأخيار: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٦). ولو رجعنا إلى الآية الكريمة التي فرض الله فيها فريضة الصوم على عباده لوجدناها تقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧. | (٤) سورة مريم، الآية: ٣٢. |
| (٢) سورة الطور، الآية: ٢٨. | (٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٧. |
| (٣) سورة مريم، الآية: ١٤. | (٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٧. |

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ فهناك في آية البر قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وهناك في آية الصيام: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فكان الصيام طريق يؤدي إلى تحقيق البر، لأن البر كما ذكرت الآية صفة المتقين، وكذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ أَتَقَرُّ﴾ (٢). والتقوى معنى كبير واسع، فالتقوى وقاية وصيانة من جهة بالابتعاد عن كل سوء ورذيلة، والتقوى قوة وحصانة من جهة أخرى بإتيان كل عمل طيب وسعي حميد.

والبر يتفرع إلى ألوان وأنواع، فهناك البر بالإنفاق لوجه الله تعالى، وفيه يقول رب العزة: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُوَدِّعُ عَلَيْهِ ﴿٢٢﴾﴾ (٣). ولقد ضرب أسلافنا أروع الأمثال في برهم بإنفاق أموالهم في سبيل الله ﷻ، حتى استحقوا أن يقال فيهم: ﴿وَيُطِيعُونَ أَلْفَمًا عَلَى حُبِّهِ يَشْكِيكَ يَا أَيُّهَا وَيَأْمُرُ ﴿٨﴾﴾ إِنْهَا تُطِيعُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تَزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿١﴾﴾ (٤). وأن يقال فيهم: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (٥) ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٦). وكان منهم أبو بكر الذي بذل ماله كله في سبيل الله، وكان منهم عثمان مجهز الجيوش، وكان منهم عبد الرحمن بن عوف ؓ صاحب الباع الطويل في الإنفاق، وعلى قمة الأبرار الأجواد يأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، فهو في جوده حيثئذ كالريح المرسلة.

وهناك بر الوالدين، بعدم عقوقهما أو الإساءة إليهما، وبالإحسان إليهما كل الإحسان، ولذلك يقول الرحمن: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا إِنْ مَا يَبْلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا وَلَا تَهْرَمُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (٧).

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣. | (٥) سورة الحشر، الآية: ٩. |
| (٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩. | (٦) سورة التباين، الآية: ١٦. |
| (٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢. | (٧) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤. |
| (٤) سورة الإنسان، الآيتان: ٨-٩. | |

وهناك بر الأقارب وذوي الأرحام، والقرآن يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١). وجاء في الحديث القدسي: أن الرحم قالت لربها: «هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال لها: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك لك»^(٢). وفي الحديث النبوي: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم، محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر»^(٣).

وهناك البر في الكلام والحديث، فإن الكلمة الطيبة نوع من البر، والله تعالى يقول في سورة المجادلة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِيمِ وَالْمَدُونِ وَمَعِيَّتِ الرُّسُلِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٤). وقد حجب القرآن المجيد أقوى تحبيب في البر بالكلام. فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوِّفَىٰ أَكْثَلُهَا كُلَّ حِينٍ يَا ذُنُوبَ رَبِّهَا وَيَعْرِثُ اللَّهُ الْأَثَمَالِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾^(٥) ويقول الله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا لَكُمْ صِرَاطَ الْعَبِيدِ ﴿٢٤﴾﴾^(٦) ^(٧).



- (١) سورة الأنفال، الآية ٧٥.
- (٢) حدث في صحيح مسلم ٢٥٥٥.
- (٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٩٦٥.
- (٤) سورة المجادلة، الآية ٩.
- (٥) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤-٢٥.
- (٦) سورة الحج، الآية: ٢٤.
- (٧) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٢٣٤-٢٣٨.

البحث الخامس:

خُلِقَ التَّعَاوُنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى

أختي المؤمنة:

التعاون هو تبادل المعونة، يقال: تعاونوا واعتنوا، ومادة «العون» تدل في أصلها اللغوي على القوة والفائدة، والعون هو الظهير على الأمر المقوى عليه، والاستعانة طلب المعونة، والعون المعاونة والمظاهرة، يقال: فلان عوني أي: معيني.

والتعاون خلق من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم.

وإذا نظرنا إلى طبيعة الإنسان وطريقته في الحياة رأينا أنه مدني بطبعه، أي: أنه اجتماعي بفطرته، ويصعب عليه أن يعيش منفرداً عن غيره من بني جنسه، ولا يستطيع أن يقوم منفرداً بكل مطالب الحياة، ولعل هذا هو الذي جعل الإنسان يحاول منذ فجر التاريخ البشري أن يلجأ إلى منظمات متوالية لتحقيق هذا التعاون، فبدأ بالأسرة، وانتقل إلى القبيلة ثم الدولة ثم منظمات أخرى.

وقد ينظر كثير من الناس إلى التعاون على أنه نظام اقتصادي مادي فقط، ولكن الإسلام ينظر إليه على أنه أصل من أصول الدين، ومبدأ من مبادئه، وأنه نظام يساعد على الخير، وأنه خلق يثاب عليه أهله، وأنه فضيلة ترفع صاحبها إلى درجة الأخيار من عباد الله.

ومن مكانة التعاون العليا أن من صفات الله تعالى أنه «المستعان» فذلك حيث يقول القرآن الكريم في سورة يوسف: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾^(١). أي هو الله الواحد القادر الذي يلجأ إليه الناس ليطلبوا منه العون على ما لا يقدرون عليه من متاعب الحياة أو بغي الأحياء.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

ولأمر ما ولحكمة بالغة جعل الله عباده المؤمنين يتذكرون على الدوام أن يسألوه المعونة، وأن يخصوه برجاء العون منه، لأنه سبحانه يقدر على ما لا يقدر عليه سواه، فشرع لهم أن يقولوا في كل صلاة من كل يوم:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

ولعلو مكانة التعاون المادي والأدبي نجد القرآن الكريم يقول في سورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّمَدُّنِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

إنه سبحانه قد قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ فاستعمل صيغة الأمر العام، ولم يكتف بذكر جواز التعاون أو إباحته، بل أوجبه وطالب به، وهو قد وجه الخطاب في الأمر إلى الجميع وإلى كل القادرين على تحقيق المطلوب، فلم يجعل الأمر مقصوراً على طائفة من الناس دون طائفة، بل جعل المطالبة موجهة إلى الجميع، وهذا يفيد وجوب شمول التعاون للمجتمع وأبنائه، وهو يوجه التعاون ليكون في الأغراض الطيبة الطاهرة النافعة للفرد والجماعة، فذكر البر والتقوى موضعين لهذا التعاون، والبر هو التوسع في فعل الخير والعمل الصالح، والتقوى هي اتقاء كل ما يضر الفرد أو الجماعة في الدين والدنيا، وفي الحسيات والمعنويات، وهو يحذر أن يكون التعاون على باطل أو إثم أو ضرر، فنهى أن يكون التعاون على الإثم والعدوان، والإثم هو كل فعل قبيح لا ترضاه العقول السليمة، ولا تقبله النفوس القويمة، والعدوان هو تجاوز حدود الشرع والعرف الصحيح في المعاملة.

ويعرض علينا القرآن الكريم صورة من التعاون تتعلق برسولين من رسله، هما موسى وهارون عليهما السلام، فعلى الرغم من أن موسى نبي ورسول لم يتردد أن يطلب من ربه أن يحقق له عن طريق التعاون مزيداً من التعاون، حتى يستطيع أداء الرسالة على الوجه الطيب، ولذلك قال يدعو ربه تبارك وتعالى:

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥. (٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَعْلَىٰ ۖ هَٰؤُلَاءِ أَيْمَىٰ ۖ أَتَدْعُوهُ أَزْرَىٰ ۚ أَتَدْعُوهُ أَزْرَىٰ ۚ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾ (١).

والقرآن المجيد يقرر أن التعاون كما يكون في وقت السلم يلزم أن يكون في وقت الحرب ولذلك يقول في سورة الصف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْتَئِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتَيْنَ مَرَّضُونَ﴾ (٢).

ولا يتحقق الصف إلا بالتجمع والترابط والتعاون، والبيان المرصوص هو المتلاصق المحكم، ولا يتم هذا إلا بتعاون وثيق (٣).



البحث السادس:

خُلُق طهارة النفس

أختي المومنة:

الطهارة نوعان: طهارة جسّ وطهارة نفس، أو طهارة جسم وطهارة قلب. وأغلب الآيات التي جاء فيها ذكر التطهر لا تخرج عن هذين النوعين، وكل من النوعين يحث عليه القرآن المجيد ويدعو إليه وينوّه به، وفيما يتعلق بطهارة الحس نجد القرآن يمتنّ بنعمة الله على عباده فيقول في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا مِّمَّنْ يَدْفَعُ رَحْمَتِيهِ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤) أي: طاهر مطهراً معيناً على التطهر، ويقول في سورة الأنفال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ (٥).

ويأمر بالتطهر عن طريق الاغتسال عند وجود داعيه فيقول في سورة المائدة:

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الصف، الآية: ٤.

(٣) أخلاق القرآن، ج ٥، ص ١٧٠-١٧٤.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ١١.

﴿وَأَن كُنتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا﴾^(١) ثم يعود في الآية نفسها ليقول: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢). ويقول في سورة البقرة: ﴿وَسَأَلْنَاكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدَىٰ فَأَعْرَضُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾^(٣). ولقد جعل الإسلام الماء أساساً للطهارة الحية، وضمن للمسلم مواطن كثيرة للتطهر المادي حين شرع الاغتسال والوضوء وإزالة النجاسة، والحرص على نظافة البدن والثوب والمكان، وربط هذه الأنواع من التطهر بأسباب كثيرة تتكرر في حياة الإنسان تكرراً متقارب المرات، كما شرع الإسلام التخلل والسواك، وسُنن الفطرة المؤدية إلى التنظيف والتطهر، ومنع المعاشرة الزوجية إذا لم تكن الزوجة طاهرة لوجود الحيض أو النفاس عندها، بل منع الإسلام المسلم أن ينال شرف القيام بعبادته لربه إذا لم يكن طاهراً، فالرجل لا يستطيع الصلاة إذا كان جنباً أو محدثاً، بل لا بد له من الاغتسال أو الوضوء، والمرأة التي لم تنته من الحيض أو النفاس لا تستطيع أن تصلي ولا أن تصوم ولا تطوف بالبيت الحرام، ولا تمس المصحف ولا تقرأ القرآن...

ولا ريب عند عاقل أو منصف في أن الإسلام هو دين الطهارة والتطهر في كل مجال يلائمه التطهر.

وبجوار التطهر الحسي عني القرآن المجيد بالتطهر النفسي أو القلبي أو الأخلاقي، فقال القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتَنَ أَيْحَتُهُنَّ فَلَا تَقْسُوهُنَّ أُنَّ يَتَكَبَّرْنَ إِذَا تَرَضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَرْكَ لَكُمْ وَأَطَهْرُ لِلَّهِ يَلْمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤). ومعنى الآية في إيجاز: إذا طلقتم النساء فأتمنن العدة فلا تمنعهن أن يراجعن أزواجهن الأولين إذا تراضوا بينهم ذلكم أطهر لكم والله يعلم ما لا تعلمون، أي: ذلك خير لكم وأفضل، وأطهر لقلوبكم من الريبة، فقد يكون في قلب هذه

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

المرأة المطلقة حب لرجل آخر تريد أن تتزوجه، فإذا عضلها مطلقها وأعادها إلى عصمته بغير اختيارها فقد تتطلع إلى غيره فلا يبقى قلبها طاهراً.

ويقول القرآن عن نساء النبي في سورة الأحزاب:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَائِهِ جَمَابٌ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (١)

أي: أحفظ لقلوبكم وقلوبهن من الريبة وخواطر السوء.

وكذلك عني القرآن الكريم بالحديث عن الطهارة التي تحتل نوعين: التطهر الحسي، والتطهر النفسي، فقال في سورة البقرة: ﴿وَعَمِيدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢). وقد قال بعض المفسرين أن المعنى: طهرا بيتي وهو الكعبة من القرث والدم الذي كان يطرحه المشركون عند البيت، أو طهراه من الأصنام التي كانوا يعلقونها على باب البيت، أو طهرا بنيانه بإكماله على الطهارة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَشْرَكَ بَيْنَكُمْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرَضُوا حَيْثُ أُمَّ مَنْ أَشْرَكَ بَيْنَكُمْ عَلَىٰ شَفَا حَرْبٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

وفي سورة المدثر يقول القرآن: ﴿وَيَا بَكَ فَطَفِّرْ﴾ (٤).

وللمفسرين في هذا النص الكريم أقوال منها: طهر عملك، لأنهم يقولون لمن يحسن العمل: فلان طاهر الثياب، وللخبيث العمل: فلان خبيث الثياب. أو: طهر قلبك ونفسك من الإثم والذنوب، أو طهر دينك وخلقك، أو طهر جسمك، وملابسك، أو طهر نفسك من المعايب.

ومما يحتمل طهارة الحس والنفس وصف السنة النبوية للزكاة بأنها طهارة للمال، وأن زكاة الفطر طهارة للصائم من اللغو، وللتطهر في الإسلام مراتب، وتبدأ في المراتب بتطهير الحس عن النجاسة والأقذار والأخباث، ثم يأتي التطهر لأعضاء الجسم عن الجرائم والآثام، ثم يأتي تطهر القلب عن الرذائل

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٤.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

والأخلاق الذميمة، ثم يأتي تطهر السرّ عما سوى الله ﷻ ، وهذه المرتبة الأخيرة هي مرتبة الأنبياء والصديقين.

ولقد أشار الغزالي إلى هذه المراتب، وذكر أن طهارة الظاهر تكون بالماء، وطهارة الباطن تكون بالفضائل، ثم يذكر أن أهم الأمور هو تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد من قول النبي ﷺ: «الطهور نصف الإيمان» عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه، مع تخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخبار والأقذار، ومما يشرف شأن التطهر أن يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾^(١) أي: لا يبلغ حقائق معرفته إلا من طهر نفسه، وتقى من درن الفساد، هكذا ذكر الأصفهاني.

ومما يشرف شأن التطهر أن يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «مفتاح الصلاة الطهور» وأن الرسول كان يدعو ربه بأن يجعله من المتطهرين، وجاء في حديث الدعاء: «اللهم اغفر ذنبي وطهر قلبه».

وهناك من وراء إمام الأنبياء نماذج فاضلة زانها ربها بنعمة الطهارة وفضيلة التطهر، والله جلّ جلاله يقول لنبيه وعبدته عيسى ابن مريم: ﴿إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ وَرَأَيْتُكَ إِذْ لَمْ يَمْطُحْ بِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢) أي: مطهرك بإخراجك من بينهم، وإنجائك منهم فهم أرجاس، وصيانتك من كفرهم. ولقد عرفنا أن الله تعالى طهر أمه مريم، أي: طهرها بالإيمان عن الكفر، وبالطاعة عن المعصية، وطهرها من الفاحشة، وطهرها من الأخلاق السيئة والردائل الشائنة.

وهؤلاء هم أهل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، يزينهم ربهم بالتطهير، فيقول عنهم في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٣).

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٧-٧٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

كما يمجّد القرآن ذكر قوم سبقوا بالإيمان وإخلاص العمل والطاعة في المسجد الذي أسس على التقوى، فيقول في سورة التوبة: ﴿لَمَسْجِدَ أُتِيَ سَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْسِنُونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُوْحِي الْمُطَهَّرِينَ﴾^(١) أي: المتطهرين في نفوسهم وحواسهم، التاركين للذنوب، والعاملين للصلاح.

وأزواج المؤمنين في الجنة أزواج مطهرة، ويذكر القرآن ذلك على أنه نعمة وفضل، وحلية وزينة، فيقول في سورة البقرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢). ويقول في سورة آل عمران: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِعِبَادِهِ بَاطِلُونَ﴾^(٣). ويقول في سورة النساء: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾^(٤) وشراب الجنة الذي يسقيه الله لأهل الجنة موصوف بالطهارة، حيث يقول القرآن في سورة الإنسان: ﴿وَسَقَنَاهُمْ رَبِّهِمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(٥) أي: مطهراً يخرج ما في بطونهم من الأذى، ويتزعم ما في قلوبهم من الغل والحسد.

وكتب الله تعالى وصفها القرآن بالطهارة، فيقول في سورة عبس: ﴿فَإِنَّ نَاءً ذَكَرْتُ ﴿١٧﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١١﴾﴾^(٦). وقال في سورة البينة: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾^(٧) أي: منزهة من الضلال والشك، مطهرة من كل دنس، مصانة من أن ينالها الكفار، ومطهرة عن أن تنزل على المشركين، أو لا ينبغي أن يمساها إلا المطهرون.

فما أجدر المؤمن البصير بأن يتخذ من فضيلة التطهر حصناً يحول بينه وبين الزلل والانحراف.. ما أجدره بأن يتطهر في عقيدته، فيتمسك بعقيدة الصفاء

- | | |
|-------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨. | (٥) سورة الإنسان، الآية: ٢١. |
| (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥. | (٦) سور عبس، الآيات: ١٢-١٤. |
| (٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥. | (٧) سورة البينة، الآية: ٢. |
| (٤) سورة النساء، الآية: ٥٧. | |

والنقاء، التي لا ريب فيها ولا التواء؛ عقيدة التوحيد التي لا يرتضي العقل السليم سواها: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) وأن يتطهر في عبادته، فلا يراني بها أو يخادع، بل يبتغي بها وجه الحق سبحانه: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) وأن يتطهر في كلامه، فيجعله طيباً صادقاً صادقاً بالحق، داعياً إلى الخير، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣) وأن يتطهر في نظره، فلا يملأ عينه من شيء غيره، ولا يتطلع إلى ما ليس له حق في التطلع إليه، ولا يَتَّبِعُ عوراتِ النَّاسِ ببصره، فإن الحق جلّ جلاله يقول: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٤) وأن يتطهر في ظنه، فلا يجعله شيئاً دون موجب: ﴿إِنَّكَ بَعِثَ الْطَّيِّبِينَ﴾^(٥) وأن يتطهر في معاملته مع غيره، يحب للناس ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.

وأن يتطهر في مظهره ومخبره، في أحواله وأعماله، في انفراده واجتماعه، وبذلك ينال رضا الله ومحبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الطَّيِّبِينَ وَيُحِبُّ النَّظَّيِرِينَ﴾^(٦) (٧).



البحث السابع:

خُلُقُ الْحَيَاءِ

أختي المؤمنة:

الحياء خلق من أخلاق القرآن، فقد ذكر الله تبارك وتعالى مادة الحياء في ثلاثة مواطن، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ كَمَا فَوْقَهَا﴾^(٨) وقال في سورة الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَدْخُلُوا

- | | |
|-------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢. | (٥) سورة الحجرات، الآية: ١٢. |
| (٢) سورة الزمر، الآية: ٢. | (٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢. |
| (٣) سورة فاطر، الآية: ١٠. | (٧) أخلاق القرآن، ج ٣، ص ٥٦-٦٩. |
| (٤) سورة غافر، الآية: ١٩. | (٨) سورة البقرة، الآية: ٢٦. |

بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ لَنْ طَمَأَنَّ غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ ﴿١﴾ أَي: غير منتظرين نُضَجَهُ وَاسْتَبَوَاهُ ﴿٢﴾ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا إِذَا طُعِمْتُمْ فَاَنْشُرُوا وَلَا مُسْتَلْبِينَ لِجَدِيدٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحِي. مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي. مِنَ الْحَقِّ ﴿١﴾. وقال في سورة القصص: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ مُنْعَوِكِ لِجَزْبِكَ آجَرَ مَا سَفَيْتَ لَنَا﴾ (٢).

وقد تعرّض المفسرون لمعنى الحياء أو الاستحياء في هذه الآيات، فقالوا في معنى الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي﴾ أَي: لا يدع ولا يترك ولا يمتنع، لأن الإنسان إذا استحيا من شيء تركه وامتنع عنه، وقيل: إن المعنى هو أن الشيء الذي يستحي منه يكون قبيحاً في نفسه، ويكون لفاعله عيب في فعله، فأخبر الله تعالى بأن ضرب الأمثال ليس بقبيح ولا بعيد حتى يستحي منه. وقالوا في الآية الثانية: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ إن المعنى هو أنها جاءت نحوه وقد سترت وجهها بثوبها، أو بيدها، أو جاءت ماشية على بعد مائلة عن الرجال، أو جاءت وهي على إجلال له وإكبار.

وقالوا في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحِي. مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي. مِنَ الْحَقِّ﴾ (٣) إن هذه الآية قد نزلت في شأن قوم كانوا يتحينون وقت إطعام النبي ﷺ، فيدخلون بيته، ويقعدون منتظرين إدراك الطعام، ثم يأخذ بعضهم يحدث بعضاً مطيلين الجلوس والحديث، وكان هذا يؤذي النبي عليه الصلاة والسلام، لتضييق الدار عليه وعلى أهله، ولصرفه عن شؤونه، وكان النبي ﷺ يستحي من دعوتهم إلى الخروج، ولكن الله تعالى لا يترك التنبيه على ذلك لأنه حق.

ومن هذا الاستعراض السريع لآيات الحياء في القرآن الكريم نفهم أن الحياء جاء مرة منسوباً إلى الله ﷻ، ومرة منسوباً إلى رسول الله ﷺ، ومرة منسوباً إلى إحدى الفتيات الطاهرات العفيفات.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٥.

وإلى جوار الآيات التي ذكرت مادة «الحياء» صراحة، جاءت آيات ترمز إلى الحياء وتشير نحوه، وهي الآيات التي تُذكر الإنسان باطلاع الله على كل أحواله وأموره، فإن استحضار ذلك في نفس المؤمن يجعلها متجملة بالحياء والحشمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١). وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢). وقوله: ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾^(٣). وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٤). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٥). وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَنْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصَعَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٦). وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوتُ مِنْ حَجَرٍ ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا حَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَمَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٧).

وخلق الحياء وثيق الصلة بيقظة الضمير، وبقظة الضمير وثيقة الصلة بحياة القلب وصفائه، ولذلك يرى ابن القيم أن الحياء من الحياة، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه خُلُقُ الحياء، وإن قلة الحياة من موت القلب والروح، فكَلَمَا كان القلب أحيى كان الحياء أتم^(٨).



البحث الثامن:

خُلُقُ الرَّحْمَةِ وَالرَّافَةِ

اختي المؤمنة:

الرحمة فضيلة إسلامية قرآنية، تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر

- | | |
|----------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة هود، الآية: ٥. | (٥) سورة النساء، الآية: ١. |
| (٢) سورة الملك، الآية: ١٤. | (٦) سورة يونس، الآية: ٦١. |
| (٣) سورة العلق، الآية: ١٤. | (٧) سورة المجادلة، الآية: ٧. |
| (٤) سورة غافر، الآية: ١٩. | (٨) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٨٨-٩٠. |

الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، بل هو يحس بالآلام الآخرين ويقدر مشاعرهم، ويسهم في معاونتهم، ويخفف عنهم حينما يستحقون التخفيف، والرحمة خلق لا يتنافى مع التأديب اللازم والعقاب المناسب، والله وهو خير الراحمين لم تتناف رحمته الشاملة الكاملة مع عقوباته التي حددها، وزوجره التي توعد بها، لأن تشريع الله الحكيم يمضي بين الترغيب والترهيب على صراط سواء.

ولست الرحمة خلق ضعف كما يزعم بعض الزاعمين، لأن الرحمة الأصيلة هي التي تنبعث عن قدرة ذاتية تستطيع أن تكون حازمة وصارمة، ولكنها تقدر الظروف، وتشعر بالمشاركة الوجدانية، فتتنازل عن بعض حقها عن طيب خاطر، وتترفق بمن يستحق الترفق واللين، فهي في الواقع قوتان لا قوة واحدة: قوة الاقتدار، ثم قوة التحكم في النفس لحملها على أن ترحم، وقد كانت قادرة على أن تقسو وتعنف.

وللرحمة مواطن كثيرة، فهناك موطن الرحمة بالأبوين، والرحمة بالأولاد والزوجات، والرحمة بالأقارب وذوي الأرحام، والرحمة باليتامى والمساكين والضعفاء كالمرضى والمصابين وذوي العاهات، ثم الرحمة بالحيوان، وهكذا تتسع آفاق الرحمة حتى تشمل جوانب فسيحة من الحياة، وعدداً ضخماً من الأحياء.

وقد حث القرآن الكريم على التحلي بفضيلة الرحمة مع أحق الناس بهذه الرحمة وهم الآباء والأمهات، فقال القرآن في سورة الإسراء: ﴿وَقَفَّيْ رُبَّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً ۗ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتُ صَغِيرًا ۗ (٢٤)﴾ (١).

يذكر بعض المفسرين - وهو القرطبي - في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ

الَّذِي مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿١﴾ إن هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما، والتذلل لهما، وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده، والذل هو اللين، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظراته، ولا يحد إليهما النظر.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ لبيان الجنس، أي: إن هذا الخفض يكون من الرحمة المتكئة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، فيقول للإنسان إنه يجب عليك أن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقاً بك، إذ تولياك صغيراً جاهلاً محتاجاً، فأثراك على أنفسهما، وأسهرها ليلهما، وجاعاً وأشبعاك، وتعرياً وكسيك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتتولى منهما ما توليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم.

وأرشد القرآن إلى أن علاقة الزوج بزوجه ينبغي أن تنهض على المحبة والرحمة، فقال في سورة الروم: ﴿وَمِن مَّا يَنْبَغِي أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

والرحمة بين الزوجين تتطلب المعاشرة بالمعروف، واحتمال الهفوة وصنع الجميل.

وكذلك وصف القرآن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، الذين استجابوا له وساروا معه، بأنهم رحماء فيما بينهم، فقال في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٢)، وأشار إلى مثل هذا حين قال في سورة المائدة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرَدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٣). وجعل القرآن من صفات المؤمنين أن يوصي بعضهم بعضاً برحمة الضعيف والتعطف عليه، فقال في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ (٤). وحذر من الإفساد في

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٤) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

الأرض وجعله قريباً لتضيق معاني الرحمة من النفوس، فقال في سورة محمد: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(١) وتقطع الأرحام كناية عن ترك المودة والتواصل، وعن فساد العلاقات.

ويدل على جلال صفة «الرحمة» أنها صفة من صفات الله ﷻ، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في جملة آيات، فقال في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٢). وفيها: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾^(٣). وفي سورة يوسف: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤). وفي سورة المؤمنون: ﴿وَقُلْ رَبِّيَ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾^(٥). وفي سورة غافر: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾^(٦). وهناك عشرات من الآيات الكريمة جاء فيها وصف الله تعالى بالرحمة.

ونجد كل سورة من سور القرآن الكريم مبدوءة بقول الله جل جلاله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ولفظ الرحمن كما يقول بعض المفسرين يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي إفاضة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، على أنها من الصفات الثابتة الواجبة، فالرحمن هو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا ينتهي لهما، والرحمن هو الثابت له وصف الرحمة لا يزياله أبداً. ويقول الإمام محمد عبده: الرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة، وهي معنى يلتم بالقلب فيبحث صاحبه ويحملة على الإحسان إلى غيره، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر، لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الإحسان، والله تعالى منزّه عن الآلام والانفعالات، فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الإحسان إلى خلقه وعباده^(٧).



- | | |
|-------------------------------|------------------------------------|
| (١) سورة محمد، الآية: ٢٢. | (٥) سورة المؤمنون، الآية: ١١٨. |
| (٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢. | (٦) سورة غافر، الآية: ٧. |
| (٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣. | (٧) أخلاق القرآن، ج ١، ص: ١٢٢-١٢٥. |
| (٤) سورة يوسف، الآية: ٦٤. | |

البحث التاسع:

خُلُقُ السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ

أختي المؤمنة:

السكينة خلق من أخلاق القرآن الكريم لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر السكينة ست مرات، مرة منها في سورة البقرة، واثنان منها في سورة التوبة، وثلاث مرات منها في سورة الفتح.

والسكينة خلق يثمر تثبيت القلب وتكينه، وإيداعه الجراحة مع الرزانة، والتكلم بوقار المحققين وإيمان الصادقين، ودقة العلماء، وهدوء الحكماء، ولعل هذا هو معنى ما ينسب إلى عمر الفاروق رضي الله عنه من أنه كان يتكلم بما يدل على توافر الحكمة والسكينة في قلبه، فقد روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن السكينة لتتلق على لسان عمر.

وروي عن عبد الله بن عباس أنه قال: كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه.

وروي أن عبد الله بن مسعود قال: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر. وفي رواية أنه قال: كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا نشك أن السكينة تتكلم على لسان عمر. وأغلب الظن أن مرادهم بالسكينة هنا هو أثرها وثمرتها، وهو الحكمة، وإن كان هناك من فسرها بالوقار والسكون والرحمة.

والسكينة كذلك هدوء في القلب ينزله الله تعالى على عبده عند اضطراب القلب من المخاوف أو الأهوال، فلا يزلزله الانزعاج، بل يشبهه الله ويوطئه، ويزيد في إيمانه ويقينه، ولذلك نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن الله تعالى جعل رسوله صلوات الله وسلامه عليه بحلية السكينة في مواطن الهول والقلق، كيوم «غار ثور» في الهجرة، ويوم أحد حين فر من فر، ويوم حنين إذ اشتد البأس على المؤمنين، ويوم الأحزاب حينما بغى الكفر محاولاً البطش بالإيمان، ويوم الحديبية حينما حاول الكفار أن يتحكموا في المسلمين... إلخ.

لَتَمِيَّةَ حِيَمَةَ الْبَيْهَاتِ ﴿١﴾ ما يصحب الجاهلية من كبرياء وأنفة ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

ومن هذه الآيات القرآنية التي تحدثت عن السكينة وأهلها نفهم أن لها ثمرات ولأهلها ميزات وخيرات، فالسكينة هي قرينة النصر للمؤمنين، ولذلك نصر الله عباده الأولين بهذه السكينة، وعذب أعداءهم الكافرين، وهي طريق التأييد الإلهي لعبده المعتصم بجنود كثيرة مستورة، وهي مفتاح الازدياد في الإيمان، وهي سبب لرضى الله تعالى، وعنوان على طهارة قلوب المزدانين بها، وأهلها جديرون بالشواب والفتح والمغنم، وهم أهل التقوى القائمون بتبعاتها، والله لا يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا^(٢).



البحث العاشر:

خُلُقُ الصبر والمصابرة

أختي المؤمنة:

الصبر، والتَّصَبُّرُ: هو تكلف الصبر، والاصطبار زيادة الاحتمال في مجال الصبر، وقد جاء في سورة مريم: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ﴾^(٣). وفي سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٤). وفي سورة القمر: ﴿فَأَرْزُقْنَهُمْ وَأَصْبِرْ﴾^(٥).
والصَّبَارُ - بتشديد الباء - والصبور: من صيغ المبالغة في الصبر وحبس النفس

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٦.

(٢) أخلاق القرآن، ج ١، ص: ١٠٤-١٠٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٥) سورة القمر، الآية: ٢٧.

ومجاهدتها، والفرق بينهما هو أن الصَّبَّار الكثير الصَّبر، أي: الذي يتكرَّر منه الصَّبْرُ ويكثر، وأمَّا الصَّبُور فهو الشديد الصَّبر القوي في صبره. وقال الأصفهاني: إن الصَّبُور هو القادر على الصبر، والصبار هو الذي عنده ضرب من التكلف والمجاهدة في الصبر، وقد جاءت كلمة «الصَّبَّار» في القرآن أكثر من مرة.

والصبر فضيلة تتعدد مجالاتها، فهناك صبر على الطاعة، أي: استمساك بأدائها، وصبر عن المعصية أي: حرص موصول على تجنبها، وصبر في الابتلاء، أي: حسن احتمال له، فلا بد للمؤمن من صبر على أداء الواجب، وصبر على الآثام والخطايا، وصبر يحفظ اللسان عن الحنأ والفُحش، وصبر بحرص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب، وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر السوء، وصبر يحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام، وصبر عند الشدائد والنوازل، وصبر في مواطن الجهاد وال^{لصا}ل بالإقدام والثبات وعدم الفرار أو التولي من الزحف، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا فَلَا تُولُوهُمْ الْآذِينَ﴾^(١). فتولية الأديبار ضد الصبر.

والصبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل، وقد يُسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره، فالصبر في الحرب يسمى شجاعة، والصبر في التوائب قد يسمى برحابة الصدر، والصبر مع السر قد يسمى بالكتمان، وقد تعرض الإمام الغزالي لكثرة أنواع الصبر وألوانه واختلاف أسمائه باختلاف متعلقاته، فقال: إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان عن احتمال مكروه اختلفت أسمائه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، وإن كان في احتمال الفتى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلمًا ويضاده التذمر.

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٥.

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر، وبيضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر، وسمي صاحبه كتوماً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، وبيضاده الحرص، وإن كان صيراً على قدر يسير من الحفظ سمي قناعة وبيضاده الشر.

فأكثر أخلاق الإيمان داخلية في الصبر، ولذلك لما سئل ﷺ مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها، كما قال: «الحج عرفة»^(١).

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك، وسمى الكل صبراً، فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: في المصيبة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: الفقر ﴿وَبَيْنَ الْأَيْمِينِ﴾ أي: المحاربة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ سَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢) (٣).



البحث الحادي عشر:

خُلُقُ صَفَاءِ الْقَلْبِ وَسَلَامَتِهِ

أختي المؤمنة:

سلامة القلب فضيلة من فضائل الإسلام، وخلق من أخلاق القرآن وجزء من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وسلامة القلب هي صفاؤه ونقاؤه، وصحته وقوته، وطهارته وبراءته، والمؤمن الحق من شأنه أن يكون صاحب قلب سليم. وكثرت عبارات السلف في المراد بالقلب السليم، فقيل: هو الخالص من دغل الشرك والذنوب. وقال ابن عباس: القلب السليم هو الذي يشهد أن لا إله إلا الله، أي: العامر بقصيدة التوحيد. وقال مجاهد: قلب سليم يعني سلم من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب

(١) صحيح الجامع برقم ٣١٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٣) أخلاق القرآن، ج ١، ص: ١٩١-١٩٣.

المؤمن، لأن قلب الكافر أو المنافق مريض، قال تعالى: ﴿لَوْ قُلُوبُهُمْ قَمَرًا﴾^(١). وقال أبو عثمان التيسابوري: القلب السليم هو القلب السالم من البدعة المظمتن إلى السنة. وقال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. ومن هذه الأقوال نفهم أن سلامة القلب في عرف المفهوم الأخلاقي القرآني تعطي معاني الطهر والصفاء، والإيمان بالله جل جلاله، والاعتقاد فيما شرع الله، والتحرز من الرذائل والعيوب.

وقد أشار القرآن المجيد إلى فضيلة سلامة القلب، فقال في سورة الشعراء: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾^(٢).

أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو كثر، ولا بنوه وإن كثروا، فلا ينفعه الافتداء بملء الأرض ذهباً، ولا ينفعه الافتداء بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله، وإنما يفوز يومئذ من أتى الله بقلب سليم خالص من الشرك، بعيد عن الدنس.

إن يوم القيامة تختلف موازينه عن موازين الدنيا، فلا ينفع المال ولا البنون أحداً، ولكن من أقبل على الله بنفس منزهة عن الشرك والتفانق، وقلب صاف طهور لا إثم فيه ولا دغل - وهو قلب المؤمن - فهو الفائز بفضل الله وثوابه، وكذلك يفوز من أنفق ماله في الخير، ومن كان ولده صالحاً، ولذلك جاء في الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٣).

ويقول القرآن الكريم في سورة الصافات متحدثاً عن نوح وإبراهيم: ﴿وَلَوْ كُنَّا مِنْ شَيْعَتِهِ لَكُنَّا عَنْكَ كَافِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) صحيح الجامع برقم ٧٩٣.

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

أي: إن من شيعة نوح وأهل دينه إبراهيم عليه السلام الذي أقبل على ربه بقلب سليم عامر بالتوحيد والخير، نقي من الشرك والإثم، خالص من آفات القلوب وعيوبها، ومجرد وصف إبراهيم بهذا الوصف وهو سلامة القلب فيه تشريف لهذه الفضيلة، وتنوه بشأنها أي تنوه، لأن إبراهيم هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء عليه السلام.

ونحن نجد وصف سلامة القلب منسوباً إلى إبراهيم في القرآن مرتين، هذه المرة في سورة الصافات، وتلك المرة السابقة عليها في سورة الشعراء، وفي الشعراء يمضي النص هكذا على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُمْعَتُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾^(١).

كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم، فلا يوجد في يوم الحساب من قيمة إلا قيمة الإخلاص الذي يجعل القلب كله لله، ويجعله متحرراً من كل شائبة وغرض ومرض، صافياً من الشهوات والانحرافات، خالياً من التعلق بغير الله، فهذه هي سلامته التي تجعل له وزناً وقيمة، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائفة الباطلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهي لا تزن شيئاً في ميزان الله العادل.

والحديث عن سلامة القلب يدعونا إلى الحديث عن القلب. إن القلب في عرف رجال التربية والأخلاق لطيفة ربانية روحية، هي حقيقة الإنسان، ولها علاقة بالقلب الحسي المودع في الجانب الأيسر من الصدر، والقلب - كما يقول أبو حامد الغزالي - هو العالم بالله، المتقرب إلى الله، العامل لله، الساعي إلى الله، المكاشف بما عند الله، والجوارح أتباع وخدم، وآلات يستخدمها القلب، وتعملها استعمال المالك للمملوك، أو الراعي للرعية.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٨٧-٨٩.

والقلب هو المقبول عند الله إذا سلم لله، ولم يكن محجوباً عن الله، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه صاحبه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودسأه، وهو المطيع لله في الحقيقة، والذي ينتشر على الجوارح من العبادة أنواره، وهو الذي إذا عرفه الإنسان عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه ﷻ .

وإذا سيطر الشيطان على هذا القلب أفسده وأضله، وأفقده سلامته وطهارته، وللشيطان مداخلة الكثيرة إلى هذا القلب لإفساده، وقد توسع أبو حامد كثيراً في بيان مداخل الشيطان على قلب الإنسان، والآفات التي تفقده سلامته، ومنها: الغضب والشهوة، والحسد والحرص، والإسراف في الطعام، وحب التزين، والعجلة وترك التثبت في الأمور، والمال وإغراؤه، والبخل وخوف الفقر، والتعصب للمذاهب والآراء، وسوء الظن بالمسلمين، والمعاصي والآثام التي تسبب كدورة على وجه القلب تمنع صفاءه وجلاءه... .

ومثل هذا القلب السليم لا يروج عنده شيء من مكائد الشيطان، بل يعرض عن الشيطان كلما حاول التفرير به، ويصبح القلب عامراً بالفضائل، وهو القلب المظمئن المراد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١) (٢) .



البحث الثاني عشر:

خُلِقَ الصدق والتصديق

أختي المؤمنة:

إذا كان خلق رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام هو التطبيق العملي لأداب القرآن، كما أخبرت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وإذا كان الحق جل جلاله يقول

(٢) أخلاق القرآن، ج ٤، ص: ٩١-٩٧.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

عنه: ﴿وَأَنَّكَ لَمَكِّيٌّ خُلِّيٌّ عَظِيمٌ﴾^(١) فمن الطيبي أن يكون سيدنا رسول الله ﷺ قدوة وأسوة ومثلاً في الصدق، وأن يظهر خلق الصدق فيه منذ نشأته تطبيقاً لقول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢). ولذلك نعته قومه قبل بعثته بنعت الصادق الأمين. ولقد قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها عند بدء الرسالة: إنك لتصدق الحديث. وقال له قومه: ما جرتنا عليك كذباً.

وحينما تواطأ المشركون المعاندون على أن يتهموا رسول الله عليه الصلاة والسلام بالسحر عارضهم أحدهم، وكان شديد العداوة للرسول، وهو النضر بن الحارث، وقال لهم: قد كان محمدٌ فيكم غلاماً حدثاً، فكان أرضاكم فيكم، وكان أصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به فقلتم: ساحرٌ، والله ما هو بساحرٍ.

وهكذا شهد له أعداؤه، كما شهد له أولياؤه بالصدق، ويا لها من شهادة، فالصدق من أعظم الأخلاق الكريمة، والقرآن قد قرر أن الرسول ﷺ على خلق عظيم، والقرآن ينوه بالصدق ويرفع شأنه، فلا عجب في أن يتمسك الرسول بالصدق في كل أحواله، حتى في مزاحه، لأن خلقه القرآن، كما قالت الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليهما.

ويقرر القرآن المجيد بعد هذا أن الصدق هو صفة الأخيار من عباد الله الصالحين المصلحين، الطائعين المستقيمين، فيقول في سورة البقرة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ سَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٣). ويقول في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٤). وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَكَلَّمُوا بِآمْنَتِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٥). وقال في سورة الحشر: ﴿وَيَضْرِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٣.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

الصَّادِقُونَ ﴿١﴾. وقال في سورة آل عمران يمدح المؤمنين: ﴿الْمُكْدِبِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ وَالْقَائِلِينَ وَالسُّفِينَةَ وَالسُّنْبُوكَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿٢﴾.

وإذا قال الإنسان الصدق سُمِّي صادقاً، وما يزال الإنسان يصدق ثم يصدق ثم يصدق حتى يصير صديقاً، والصديق هو الملازم للصدق لا يتركه إلى غيره، وقد وردت في تعريف الصديق عدة أقوال. فقول: هو من كثر منه الصدق، وقيل: هو من لا يكذب أبداً، وقيل: هو من لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: هو من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله، وإذا كان المفردون قد قالوا: إن الصديقين قوم دون الأنبياء في الفضيلة فذلك لا يمنع أن يتصف الأنبياء والرسل بصفة الصديقية الملائمة لعصمتهم ومنزلتهم الزائدة عن صديقية غيرهم ممن ليسوا برسل ولا أنبياء، ولقد وصف القرآن الكريم خليل الرحمن وأبا الأنبياء إبراهيم بهذه الصفة، فقال في سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٣﴾. ووصف إدريس بمثل هذا فقال في سورة مريم أيضاً: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤﴾. وجاء في القرآن وصف يوسف بالصديقية في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ ﴿٥﴾. وجاء وصف مريم بهذه الصفة في سورة المائدة: ﴿وَأُمَّتُكُمْ صِدِّيقَةٌ﴾ ﴿٦﴾.

وجاء وصف الأخيار من عباد الله بوصف الصديقية، ففي سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٧﴾. وفي سورة الحديد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ﴿٨﴾.

وهذا كله يدلنا على ما أعطى القرآن الكريم فضيلة الصدق من منزلة ومكانة ﴿٩﴾.

- | | |
|-------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة الحشر، الآية: ٨. | (٦) سورة المائدة، الآية: ٧٥. |
| (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧. | (٧) سورة النساء، الآية: ٦٩. |
| (٣) سورة مريم، الآية: ٤١. | (٨) سورة الحديد، الآية: ١٩. |
| (٤) سورة مريم، الآية: ٥٦. | (٩) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٤٣-٤٥. |
| (٥) سورة يوسف، الآية: ٤٦. | |

البحث الثالث عشر،

خُلُقُ الصَّالِحِ وَالْإِصْلَاحِ

أختي المؤمنة:

لقد تكررت مادة الصَّالِحِ وَالْإِصْلَاحِ في القرآن المجيد أكثر من مائة وسبعين مرة، ونستطيع أن نلاحظ من مراجعة هذه المواضع أن الترتيب الطبيعي أو الغالب فيها أن الإيمان مدخل إلى الصَّالِحِ، وأن الإِصْلَاحَ يكون ثمرة أو نتيجة للصَّالِحِ. ومن هنا ينبغي أن نلاحظ هذا الاقتران المتكرر الغالب بين ذكر الإيمان وذكر العمل الصَّالِحِ، وقد تكرر قول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أكثر من خمسين مرة.

وليس هناك من ضرورة تلجئ إلى إيراد كل هذه المواطن، وحسبنا هنا نماذج منها، ففي سورة البقرة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

وفي سورة المائدة: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُونَ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رِجْوًا لَا يَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ عُقُوبَةً وَلَا جَزَاءً لِّئَلَّا يَتَّخِذَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

وفي سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ وَلَدًا غَيْرَ مَحْرُومِينَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٩.

وفي سورة الكهف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(١).

والله تبارك وتعالى يَمُنُّ على الأخيار من عباده، فيصلح لهم أعمالهم، وفي هذا تشريف للصالح والإصلاح، يقول القرآن في سورة الأحزاب: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصِغْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٢).

والرَّسُلُ - عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وهم التَّمَاذِجُ العُلَيَا من البشر - قد أمرهم أن يعملوا أعمالاً صالحةً، وأن يكونوا أئمةً في هذا المجال، بعد أن صنعهم الله على عينه، فجعلهم أئمة في الصَّلاح، يقول التنزيل في سورة المؤمنون: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٣).

يقول بعض أهل التفسير: يأمر الله عباده المرسلين، عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

وفي سُنَّةِ الرِّسُولِ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ يقول: «بذلك أمرت الرسل: أن لا تاكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً».

وقد ذكر القرآن المجيد طائفة من الأنبياء والمرسلين، وعطر كلاً منهم بأنه موصوف بصفة الصَّلاح، ففي سورة البقرة يقول عن إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ آسَظَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤).

وهذا شعيب يتادي - كما في سورة هود - بأنه لا يريد إلا الإصلاح الناشئ

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

عن الصلاح: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١).

أي: لا أقصد إلا الإصلاح العام لكم، بالتزامي الدعوة إلى ما أمر الله به، والنهي عما نهى عنه، فلا أريد نفعاً ذاتياً، ولا مارباً شخصياً، ولا يتحقق توفيقى لما أرتجى إلا بفضل الله وقوته.

وللإصلاح مواطن، وكلما كان المواطن عاماً واسعاً شاملاً الكثير من عباد الله كان أنفع وأمتع وأروع، ولذلك يقول التنزيل في سورة الأنفال: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (٢). أي: الأحوال الواقعة بينكم معشر المسلمين، فاتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تخاصموا ولا تستبوا.

ويقول القشيري: أصلحوا ذات بينكم بالانسلاخ عن شح النفس، وإيثار حق الغير على ما لكم من النصب والحظ، وتنقية القلوب من خفايا الحسد والحقد.

والإصلاح كذلك واجب بين الجماعتين اللتين قد تقتتلن مع أن كلاً منهما تنتسب إلى الإسلام، ففي سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَغَايِلُوا إِلَى تَبَيعِ حَقِّ تَفِيءٍ إِلَيْكَ أَمْرٌ اللَّهُ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٣) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخُوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤).

ويقول الحق جل جلاله في سورة النساء: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ اتَّخَذْنَا مَرْضَاتٍ اللَّهُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤).

فالإصلاح بين الناس مجال فسيح واسع لجهود الصالحين المصلحين من

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٣) سورة الحجرات، الآيات: ٩، ١٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ١١٤.

عباد الله سبحانه، ولقد عنى رسول الله ﷺ بالإصلاح حتى روى أنس عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «تَسْمَى فِي إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا، وَتُقَارِبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»^(١).

كما ورد قول الرسول ﷺ: «أفلا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»^(٢).

ومن مواطن الصلاح والإصلاح المهمة ما يشير إليه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ خَبَّرْتُ وَإِن كُنَّا لَطَوِّهْمُ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾^(٣).

وإصلاح أحوالهم بتأديبهم قد يكون أهم من الإصلاح المعلق بأموالهم.

وثمة ملاحظة نشاهدها في الأسلوب القرآني، فنحن نجد في كثير من المواطن يجمع بين ذكر التوبة وذكر الإصلاح، ويأتي ذكر التوبة أولاً، وكان هذه إشارة - والله أعلم بمراده - إلى أن الإنسان الصالح يبدأ أولاً بالتوبة للتطهر والتنظيف، وهذه مرحلة نستطيع أن نسميها مرحلة «التخلية» أي: التخلص من الرواسب والآثام، وتأتي مرحلة نستطيع أن نسميها مرحلة «التحلية» التي يحلي الإنسان الفاضل فيها نفسه بالمكارم والمحامد، وفي طبيعتها الإسهام في إصلاح الناس، فلنتعرض بعض الشواهد على ذلك:

١ - في سورة الأنعام:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ

(١) مجمع الزوائد، ج ٨ / ٨٠، وقال الهيثمي: فيه صاحب أبي امامة لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) حديث صحيح، صحيح الجامع برقم ٢٥٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَجِلَ مِنْكُمْ سَوْءًا يَجْهَلِكُهُ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ .

٢ - في سورة المائدة:

﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) .

٣ - في سورة النساء:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاتَّعَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا وَبِهِمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣) .

٤ - في سورة النحل:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) .

٥ - في سورة النور:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥) .

٦ - في سورة البقرة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاذْلِكُمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٦) . . .

إلخ .

وفي هذه الآية الأخيرة يقول القرطبي: استثنى الله تعالى التائبين الصالحين المصلحين لأعمالهم وأقوالهم، المنيبين لتوبتهم، ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل: قد تبت، حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول: فإن كان مرتدأً رجع إلى الإسلام مظهراً شرائعه، وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه.

(٤) سورة النحل، الآية: ١١٩ .

(٥) سورة النور، الآية: ٥ .

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٦٠ .

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٩ .

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٦ .

وقد ذكر القرآن كثيراً من أنواع الجزاء والثواب على العمل الصالح، مع ما يفترون به من توبة وتقوى واستقامة، فهناك تكفير السيئات، ففي سورة الإسراء:

﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾^(١).

وفي سورة التغابن:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

وهناك مضاعفة الثواب، ففي سورة سبأ:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾^(٣).

وهناك وراثة الأرض والسيادة فيها، ففي سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٤).

وهناك ولاية الله تعالى، وأنعم بها من ولاية، ففي سورة الأعراف:

﴿إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^(٥).

وهناك الحياة الطيبة والأجر الحسن، ففي سورة النحل:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦).

ونفهم من حديث القرآن الكريم عن العمل الصالح والمغفرة أن المعاصي لا تحبط الطاعات، فالله تعالى يقول في سورة المائدة:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٧).

والمغفرة - كما في لطائف الإشارات - لا تكون إلا للذنوب، فوصفهم

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٥.

(٦) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٩.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

بالأعمالِ الصَّالِحَاتِ، ثم وعدهم المغفرة، لنعلم أن العبد تكون له أعمال صالحة، وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى الغفران، بخلاف ما قيل إن المعاصي تحبط الطاعات. وقيل إن المعنى أن العبد - وإن كانت له أعمال صالحة - فإنه يحتاج إلى عفو الله ورضوانه وغفرانه، ولولا ذلك لهلك.

ونفهم كذلك من حديث القرآن الحكيم عن «الإصلاح» أنه يبعد أهله عن الهلاك، يقول الحق جل جلاله في سورة هود:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١) (٢)



البحث الرابع عشر:

خُلِقَ لَيْنَ الْجَانِبِ وَخَفَضَ الْجَنَاحَ

أختي المؤمنة:

الْجَنَاحُ يُطْلَقُ فِي حَقِيقَتِهِ عَلَى مَا يَخْفِقُ بِهِ الطَّائِرُ عِنْدَ الطَّيْرَانِ، وَقَدْ يُطْلَقُ الْجَنَاحُ عَلَى يَدِ الْإِنْسَانِ، أَوْ عَضُدِهِ، أَوْ جَانِبِهِ، كَمَا يُطْلَقُ الْجَنَاحُ عَلَى النَّاحِيَةِ. وَخَفَضَ فَلَانَ جَنَاحَهُ لِفَلَانٍ، أَي: أَلَانَ لَهُ جَانِبَهُ وَتَوَاضَعَ مَعَهُ وَتَرَفَّقَ فِي مَعَامَلَتِهِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ يَهْبِطُ بِنَفْسِهِ كَمَا يَفْعَلُ الطَّائِرُ عِنْدَ هَبْوَتِهِ، وَذَلِكَ لِيَرْفَعَ الْإِنْسَانَ غَيْرَهُ فِي الْمَعَامَلَةِ، فَكَأَنَّ خَفَضَ الْجَنَاحَ كُنَايَةٌ عَنِ اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْ هُنَا يَأْتِي الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِي لِهَذَا التَّعْبِيرِ: «خَفَضَ الْجَنَاحَ».

ولذلك يتعرّض جأرُ الله الزمخشري لبيان المعنى في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) فيقول: إن الطائر إذا أراد

(١) سورة هود، الآية: ١١٧.

(٢) أخلاق القرآن، ج ٤، ص: ٢٠٩-٢٢٠.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

أن يهبط من أعلى إلى أذنى كسرَ جناحَهُ وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ونشره، فجعل القرآن الكريم خفض جناحه عند النزول أو الهبوط مثلاً في التواضع ولين الجانب، ومنه قول بعضهم مادحاً:

وأنت الشهيرُ بخفض الجناحِ فلا تُكُ في رفيعهِ أجْذلاً
وهو ينهى ممدوحَهُ هنا عن التكبر بعد التواضع، والأجدل الصّقر.

وهذا المعنى الأخلاقي لخفض الجناح يذكرنا بالحديث: «إن الملائكة لتضعُ أجنحتَها لطالبِ العِلْمِ رضىً بما يَضَعُ»^(١). أي: تتواضع معه تعظيماً لحقه، أو تضعها وطاءً له إذا مشى، وهذا كناية عن التوقير والتكريم.

ولقد ذكر القرآن المجيد فضيلة «خفض الجناح» في ثلاثة مواطن: الأول في سورة الحجر حيث يقول:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

والموطن الثاني في سورة الإسراء حيث يقول:

﴿وَقَفَّيْ رَيْكَ إِلَّا تَبَدُّوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْتَغِ الْوَالِدُ كِبْرَ أَحَدِهِمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْيَ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٤).

والموطن الثالث في سورة الشعراء حيث يقول:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٥) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٧).

ونلاحظ بادئ ذي بدء أن الخطاب في مواطن من هذه المواطن الثلاثة يتجه

(١) صحيح سنن الترمذي برقم ٢٨٠١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٢١٤-٢١٦.

إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وجاء الخطاب في المواطنين بأسلوب الأمر والطلب. وفي هذا ما فيه من إشارة إلى علو مكانة هذه الفضيلة الأخلاقية القرآنية، ومن تشريف لها عن طريقة مطالبة الرسول بها أكثر من مرة ليكون خير قدوة للناس في الاستمساك بهذا الخلق الكريم.

كما نلاحظ أن المواطن الثلاثة كلها قد جاء فيها الحديث القرآني عن خفض الجناح بصيغة الأمر والطلب، وذلك دليل على مدى العناية التي يعطيها كتاب الله تبارك وتعالى لهذه الفضيلة.

وقوله في سورة الحجر: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). معناه: ابن لهم جانبك؛ ليتحقق أمامهم فيك قول ربك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

وقوله: ﴿فِيمَا رَحَمْتُمْ بَيْنَ أَلَيْمٍ لِّذُنُوذِكُمْ إِنَّ أُنسًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِكُمْ سَوَءٌ وَأَن يَدْعُوا نَجْدًا فَذَعَبًا يَدْعُونَ﴾^(٤).

ويقول الزمخشري في تفسير الآية: وتواضع لمن معك من فقراء المسلمين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء، وإنما ذكر الزمخشري الفقراء والضعفاء هنا لأن الآية بأكملها تقول: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أي: اصنافاً ﴿مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥). فلما نهاه عن التطلع إلى ما في أيدي الأغنياء من متع الحياة وزينتها، والحزن عليهم لكفرهم أو تجبرهم، طالبه بلين المعاملة مع المؤمنين العابدين حتى ولو كانوا فقراء أو ضعفاء، وإذا كان خفض الجناح في هذا المواطن عاماً شاملاً كل المؤمنين، فإن خفض الجناح في المواطن الثاني جاء الأمر به خاصاً متعلقاً

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

بشخصين عزيزين غاليين، يعلو حقهما على حقوق سواهما، ذلكما هما الأم والأب اللذان يقول القرآن للولد عنهما:

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّبِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١).

أي: تواضع لهما فوق طاعتهما وحفظ حقوقهما ورعاية حرمتها، فاخفض لهما جناح الذل بلين المنطق، وجميل اللقاء، ولطف المعاملة، وحسن المداراة، والمبادرة إلى الخدمة، والصبر على أمرهما، وترك التبرم بمطالبهما. ويعلق جار الله على كلمة: ﴿جَنَاحَ الذُّبِّ﴾ فيقول: فيه وجهان: أحدهما أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك كما قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) فأضافه إلى الذل، كما أضيف حاتم الطائي إلى الجود، على معنى: واخفض لهما جناحك اللذيل الخاضع.

والثاني: أن تجعل لذلك جناحاً خفيضاً مبالغاً في التذلل والتواضع لهما على سبيل الاستعارة، كما جعل لبيد الشاعر لريح الشمال يداً، وللقرعة - وهي شدة البرد - زماماً، في قوله:

وغداة ريح قد كسفت وقرعة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
والنيسابوري في تفيحره يذكر أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه للتربية والحضانة، خفض له جناحيه فلذلك صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، وهذا المعنى مناسب لحسن المعاملة التي نطلبها من الولد لوالديه، إذ لا بدَّ من بذل الجهد حتى تأتي معاملته على أحسن وجه ممكن.

ويأتي الموطن الثالث وهو قول الله جل جلاله في سورة الشعراء: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَجَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) وهذا أمر باللين العام، والتواضع الذي يشمل كل الأتباع المؤمنين، حيث يأمر الله نبيه بأن يلين معهم، ويحلم عليهم، ويترفق

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

بهم، ويجسم القرآن ذلك في صورة حسية، هي صور الجناح المخفوض من الطائر حينما يهبط بالهبوط حيث الهدوء والسكون والاطمئنان.

ويفسر القشيري في «لطائف الإشارات» هذه الآية بقوله: أَلِنْ جانبيك لهم، وقاربهم في الصحبة، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدو منهم من التقصير، واحتمل منهم سوء الأحوال، وعاشرهم بجميل الأخلاق، وتحمل عنهم كلهم، وارحمهم كلهم، فإن مرضوا فعدهم، وإن حرموك فأعطهم، وإن ظلموك فتجاوز عنهم، وإن قصروا في حقك فاعف عنهم، واشفع لهم أو استغفر لهم.

ولنلاحظ هنا أسلوب النظم القرآني، ولنر كيف سار أن الآيات هنا تقول:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٧﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٩﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْمَرْيَمَ الرَّحِيمَةِ ﴿٢٢٠﴾﴾^(١).

انظر كيف بدأت الآيات بذكر الإنذار، وفيه شدة وصلابة وصرامة، ثم ذكرت خفض الجناح، وفيه رفق ولين وتواضع، فإن لم ينفع معهم الإنذار الممزوج باللين، فدعهم وشأنهم، واتجه إلى ربك القوي الغالب الرحمن الرحيم، فأنت في هدايته ورعايته.

وقد يقال: ولم قال القرآن: ﴿لِمَنِ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) والمتبعون للرسول ﷺ هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول؟ ويجب الزمخشري على ذلك بقوله: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين، لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان:

صنف صدق وأتبع رسول الله فيما جاء به، وصف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح.

والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم. يعني: أنذر قومك. فإن

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤-٢١٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

اتبعوك وأطاعوك فاخفص لهم جناحك، و: إن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم ومن الشرك بالله وغيره، وتوكل على الله يكفك شرًّا من يعصيك منهم ومن غيرهم^(١).



البحث الخامس عشر:

خُلِقَ كظَم الغيظ وكف الغضب

أختي المؤمنة:

و«الغيظ» صفة تدل على تغير في المخلوق عند احتداده يتحرك لها، وفي الحديث جاءت كلمة: «غيظ جارتها» لأنها ترى من حسنها ما يغيظها ويهيج حننها. ولقد قال الأستاذ الإمام محمد عبده عن الغيظ: الغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال، أو المعنوية كالشرف، فيزعجها إلى التشفي والانتقام، ومن أجاب داعي الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكفي بالحق، بل يتجاوزة إلى البغي، فلذلك كان من التقوى كظمه.

وقد وردت مادة «الغيظ» في آيات من القرآن الكريم، ففي سورة آل عمران: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَشُوا عَلَيْكُمْ أَلْمَأُومَةُ مِنَ النَّعِيظِ قُلْ مُؤْمِنًا يَغِيظُكُمُ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢). وفي سورة التوبة: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾^(٣). وفيها أيضاً: ﴿وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾^(٤). وفي سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾^(٥).

(١) أخلاق القرآن، ج ٣، ص ٢٨-٣٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

و«كظم الغيظ» هو تجرعه واحتمال سببه والصبر عليه، وفي الحديث: «إذا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَكْظُمْ مَا اسْتَظَاعَ»^(١). أي: فليحبسه ما أمكنه، وقد قال المفسرون في قوله تعالى عن المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(٢) إتهم الذين إذا نازَ بهم الغيظُ - وهو أشد الغضب - كظموه وكتّموه، ولم يستجيبوا لداعيه، ولا يعلنون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله ﷻ.

ولشيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري عبارة في التعليق على كلمة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ يقول فيها ما نصه: قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ يعني: والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه: كظم فلان غيظه إذا تجرعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وأصل ذلك من كظم القربة، يقال منه: كظمت القربة إذا ملأها ماء. وفلان كظيم ومكظوم إذا كان محتكاً غماً وحزناً، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٣) يعني: ممتلئ من الحزن، ومنه قيل لمجاري المياه: الكظائم، لامتلائها بالماء، ومنه قيل: أخذت بكظمه، يعني: بمجاري نفسه، والغيظ مصدر من قول القائل: غاظني فلان فهو يغيظني غيظاً، وذلك إذا أحفظه وأغضبه. اهـ.

وكظم الغيظ يحتاج إلى إرادة صُلْبَةٍ، وعزيمة قوية، وشخصية تتحكم في عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها، فلا يستبد بها الغضب، ولا يسيطر عليها الهوى الجامح، فيدفعها إلى الانتقام والتشفي، أو إلى ارتكاب ما لا يحسن بالرجل الحكيم الوقور.

ولذلك قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه: «ليس الشديدُ

(١) صحيح مسلم برقم ٢٩٩٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

بالضَّرْعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضِبِ^(١). وفي رواية أنه قال: «ما تعدون الضَّرْعَةَ فيكم؟» قالوا: الذي لا يصرعُهُ الرِّجَالُ. قال: «ليسَ بذلك، ولكنَّهُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضِبِ»^(٢).

ولقد عنيت السنة المطهرة عناية واضحة بفضيلة كظم الغيظ، فجاءت فيها مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تُنَوِّهُ بِمَكَانَةِ هَذَا الخَلْقِ الإِسْلَامِيِّ القُرْآنِ، فجاء في الحديث: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ، دَعَا اللَّهَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ، حَتَّى يَخِيرَهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ العِينِ شَاءَ». وجاء فيه: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا - وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْضِيَهُ لَمْضَاءً - مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ رِضًا»^(٣).

وتشير السنة إلى ما تتطلبه فضيلة كظم الغيظ من جهد ومعاناة، ومغالبة للهوى والنفس، فيقول الحديث الشريف: «مَا جَرَعَ عَبْدٌ جِرْعَةً أعْظَمَ أَجْرًا مِنْ جِرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى»^(٤).

فالتعبير بكلمة «جرع» تفيد معنى المعاناة والمعالجة وحمل النفس على الشيء المتعب الذي يعقب خيراً، كما يتجرع المريض الدواء المرَّ ليورثه الشفاء والعافية. وهذا هو الأصفهاني يقول في كتابه «مفردات القرآن» عن مادة جرع: جرع الماء يجرع، وقيل: جرع وتجرعه إذا تكلف جرعه، قال بِشْرُوحِهِ: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِفُّهُ﴾^(٥).

وكان احتياج كظم الغيظ إلى الجهد والمشقة والمقاومة، هو بعض السر في أن الله تبارك وتعالى قد جعل هذه الفضيلة من أخلاق أهل التقوى، كما جاء في التنزيل المجيد: ﴿أَعَدَّتْ لِلمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْعُسْرَاءِ وَالْكُفْرَانِ وَالغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾^(٦).

(١) صحيح مسلم برقم ٢٦٠٩.

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٦٠٨.

(٣) صحيح الجامع برقم ٦٥١٨، وقال: حسن.

(٤) قاله العراقي في تخریج أحاديث الإحياء، ج ٣ / ١٧٥، أخرجه ابن ماجه.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

(٦) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣-١٣٤.

ولعل هذا هو السبب في أن السيدة عائشة رضي الله عنها كظمت غيظها، حينما غاظها بعض من يخدمها وقالت: **لله ذرُّ التَّقوى ما تركتُ لذي غيظِ شفاءً.**

والغضب هو العامل المفسد لكظم الغيظ، فمن استجاب لداعي الغضب لم يستطع أن يكظم غيظه، ولذلك يروى أن رجلاً رحل إلى رسول الله ﷺ وقال له: علمني شيئاً، ولا تُكثِرْ عليّ لعلي أعيه. فقال له: «لا تغضب» فكرر الرجل قوله مراراً، وفي كل مرة يقول له النبي ﷺ: «لا تغضب»^(١).

وفي بعض الروايات أن هذا الرجل يسمى «جارية بن قدامة» وأنه قال للنبي ﷺ: أوصني ولا تُكثِرْ عليّ في الوصية لعلي أحفظها، فقال: «لا تغضب» فأعاد الرجل السؤال فأعاد النبي ﷺ الجواب.

والعلماء يقولون: إن الغضب هو فوران دم القلب لإرادة الانتقام، وهذا شيء كأن الإنسان مجبول عليه، ولا يستطيع التخلص منه بالكلية، ولكن المأمول من الرجل صاحب الأخلاق الفاضلة أن يتجنب أولاً أسباب الغضب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن لا يطيع الشيطان فيما يوسوس له من الاستجابة لداعي الغضب، فلا يتهور ولا يتجبر ولا يندفع، وهذا خلق من أخلاق الأنبياء، لأن الحلم شيمة من شيمهم الأساسية، والحليم لا يرتضي لنفسه التهور أو الاندفاع عند ثوران الغضب، ولقد قال الله تعالى عن نبيه يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾^(٢). وقال عكرمة في تفسير الحضور هنا: إنه السيد الذي لا يغلبه الغضب^(٣).



(١) صحيح البخاري برقم ٦١١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٣) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٦٥-٦٨.

البحث السادس عشر:

خُلِقَ العفو والإحسان

أختي المومنة:

العفو خلق من أخلاق القرآن التي كرر ذكرها، ورفع قدرها، ولعل ما يبين هذا القدر الرفيع للعفو أن القرآن المجيد جعله صفة من صفات الله ﷻ وأشار إلى ذلك في طائفة من الآيات، ففي سورة البقرة يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١). وفيها أيضاً يقول: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(٢).

وفي سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ مَكَرَ كُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وفيها أيضاً: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

وفي سورة النساء: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾^(٥). وفي سورة التوبة: ﴿إِنْ تَتُوبْ عَنْ ظُلْمَتِكُمْ وَيَتُوبْ بَيْنَكُمْ تَعَدَّ ظُلْمَتُكُمْ عَنَّا﴾^(٦). وفيها أيضاً: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾^(٧).

وفي سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُمْسِكِينَ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٨).

وفيها: ﴿وَمَنْ أَلَدَى الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾^(٩). وفيها: ﴿أَنْزِ يُورِيهِمْ يَهْلِكُنَّ﴾^(١٠) ﴿يَمَا كَسَبُوا وَعَفَّ عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١٠) . . إلخ.

- | | |
|--------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة البقرة، الآية: ٥٢. | (٦) سورة التوبة، الآية: ٦٦. |
| (٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧. | (٧) سورة التوبة، الآية: ٤٣. |
| (٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢. | (٨) سورة الشورى، الآية: ٣٠. |
| (٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥. | (٩) سورة الشورى، الآية: ٢٥. |
| (٥) سورة النساء، الآية: ٩٩. | (١٠) سورة الشورى، الآية: ٣٤. |

وهكذا نجد أن كتاب الله تبارك وتعالى قد نسب صفة العفو إلى رب العزة والجلال أكثر من عشر مرات، ونرى أن الله تعالى يعفو وفي الوقت نفسه يهدد بالمؤاخظة من يعود أو يُصِرّ، وهو يعفو عن طائفة تستحق العفو، ويعاقب من لا يستحق العفو، وهو يحث على الاتجاه إلى الأسباب التي تجعل الإنسان مستحقاً لعفوه، ونجد أكثر من هذا وهو أن القرآن يصف الله - ﷻ - بأنه العَفُوُّ في مواطن، فيقول في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(١). وفيها أيضاً: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٢).

وفي سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾^(٣).

وفي سورة المجادلة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ﴾^(٤).

وما دام العفو صفة من صفات الله التي تؤكد آيات القرآن، فإنه مما يركب الإنسان، ويسمو بقدره عند الله وعند الناس أن يتخلق بهذا الخلق الكريم النبيل، ولذلك دعا القرآن إلى العفو وحث عليه، ونوّه به في أساليب مختلفة، فتراه مثلاً في سورة البقرة يقول: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٥) فيذكر بأن العفو يكون معواناً على تحقيق التقوى عند الإنسان، وعلى تجنب الحيف والظلم.

ويقول في سورة الشورى: ﴿وَيَحْزَنُوا سِتْرَةَ سِتْرَةٍ نِيْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَلْتَجِرْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٦).

فليس هناك مانع من مقابلة السيئة بجزائها، ومواجهة التطاول بمثله، ولكن العفو المؤدي إلى الإصلاح والخير أجمل وأكمل، وثواب هذا العفو النبيل لا يضيع عند الله الذي يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٧).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٧) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٠.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢.

ويقول في سورة التَّغَابِنِ: ﴿وَإِنْ تَمَقُّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَعْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾^(١).

ويقول في سورة النساء: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾^(٢).

وهذا تأكيد للبحث على التجمل بالعتفو، وتذكير بأن ثوابه إذا أحسن صاحبه التحلي به - ولم يخرج فيه عن مواطنه - لا يضيع عند الله ﷻ، والقرآن الكريم يحرض الناس على الترفي في درجات الصَّفْحِ والعتفو والغفران والتسامح مع الناس فيقول في سورة آل عمران:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنِّتْ عَرْشَهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبْتِ وَالْقَيْظِ وَالْعَافِينِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَعَبِّرِينَ﴾^(٣).

وكظم الغيظ هو كتم الغضب وعدم العمل بمقتضاه، والعتفو هو ترك العقوبة، والإحسان هو التفضل بالخير^(٤).



البحث السابع عشر:

خُلِقَ الصَّفْحُ وَالْعَفْوُ

أختي المؤمنة:

الصَّفْحُ خلقٌ من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من صفة الرسول عليه الصلاة والسلام، والغالب على استعمال القرآن

(١) سورة التَّغَابِنِ، الآية: ١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣-١٣٤.

(٤) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٣٤-٣٦.

للصفح هو معنى الإعراض عن الذنب، والصلة بين المعنى اللغوي للصفح والمعنى الأخلاقي هو أن قولهم: صفحت عنه معناه أوليته مني صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه، أو لقيت صفحته متجافياً عنه، أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها، من قولك: تصفحت الكتاب.

والصفح يذكرنا بالعتو، والكثير من الناس يظنون العفو والصفح شيئاً واحداً، حتى إن الطبرسي في «مجمع البيان» يقول: الصفح والعفو والتجاوز بمعنى. ولقد سبق عن خلق العفو فيما تقدم في البحث السابق من أن الصفح غير العفو، لأن الصفح أبلغ من العفو وأعلى منه درجة، فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، ولذلك جاء في «مفردات القرآن»: الصفحُ أبلغُ من العفو، ولذلك وفي القرآن الكريم: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾^(١). ويقول القرطبي: العفو ترك المؤاخذه بالذنب، والصفح إزالة أثره من النفس. وفي «تفسير المنار» العفو ترك العقاب على الذنب، والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والشرب.

ومن شرف فضيلة الصفح أن الله تبارك وتعالى أمر بها نبيه محمداً ﷺ، فقال له في سورة الزخرف: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ وَسَلِّمْ﴾^(٢).

فقد أمره ربه بأن يصفح عنهم، وفي ضمن ذلك منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب، بل يرجو لهم الهداية والرحمة، وأمره بأن يقول لهم: سلام.

يقول ابن كثير في الآية: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين. ﴿وَقُلْ سَلِّمْ﴾ أي: لا تجاورهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغرب.

ويقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٩.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأِنَّتٌ ^١ فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿١﴾.

والصفح الجميل هو أبلغ ألوان العفو، وهنا أمر للنبى عليه الصلاة والسلام بأن يخفف على نفسه كفر من كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرٍ مِمَّا بَتَكُورُونَ﴾ ^(٢).

وفي القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَمِن كَثِيرٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مَّرًّا بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَغَارًا حَسَافًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّمَّا بَدَأَ مَا بُنِنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٣).

أي: لقد تمنى اليهود لو استطاعوا أن يجعلوكم كفاراً بعد أن عرفتم الإيمان، وذلك بسبب حسدهم لكم، ومن تلقاء أنفسهم، إذ لم يأمرهم الله بذلك، ولم يجدوه في كتاب من عند الله، وقد ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم الحق، وهو رسول الله محمد ﷺ، والقرآن الذي جاء به من عند الله، فاعفوا عنهم وأعرضوا حتى يأتي الله بالنصر، إن الله على كل شيء قدير.

ويقول الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿وَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٤).

والمعنى: أنهم بسبب نقضهم العهد والميثاق لعنهم الله وأبعدهم عن رحمته، وجعل قلوبهم قاسية صلبة، لا تعي خيراً ولا تفعله، وهم يبدلون الكلام ويحرفون معناه، ونسوا عهدهم الذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد ﷺ، وأنت يا رسول الله لا تزال تطلع على خيانة منهم وفجور، إلا قليلاً منهم لم يخونوا، فاعف عنهم واصفح ما دام بينك وبينهم عهد وهم أهل ذمة.

ويقول ابن كثير هنا: وهذا هو عين التصر والظفر. كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصي الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم جمع

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) يعني به الصفح عن أساء إليك.

ويقول الله عز شأنه في سورة التغابن: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَنزَلْنَا بِاتِّمَانٍ مِنْكُمْ زَوْجِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ لَكُمْ فَالْمَدْرُورُ وَإِنْ تَمَقَّقُوا وَمَصَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

قيل: إن الآية الكريمة نزلت في بعض المسلمين الذين كانوا إذا أرادوا الخروج للجهاد بكى أولاده وأهله وقالوا له: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم. وقيل: نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ في المدينة، فأبى أولادهم وزوجاتهم، فلما أتوا النبي رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا بمعاينة أولادهم وأهلهم، فأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ تَمَقَّقُوا وَمَصَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ويقول الله جلّ وعلاً في سورة النور: ﴿وَلَا يَأْكُلُ أُولُوا الْقُرْبَىٰ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

جاء في تفسير مفاتيح الغيب للرازي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق حيث حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثانة، وهو ابن خالة أبي بكر، وقد كان يتيماً في حجره، وكان ينفق عليه وعلى قرابته، فلما جاءت قصة الإفك قال لهم أبو بكر: قوموا فليست مني وليست منكم، ولا يدخلن علي أحد منكم.

فقال مسطح: أنشدك الله والإسلام، وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا إلى أحد، فما كان لنا في أول الأمر من ذنب.

فقال لمسطح: إن لم تتكلم فقد ضحككت.

فقال: قد كان ذلك تعجباً من قول حسان.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٢.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٤.

فلم يقبل أبو بكر عذره، وقال: انطلقوا أيها القوم، فإن الله لم يجعل لكم عذراً ولا فرجاً.

فخرجوا لا يدرون إلى أين يذهبون وأين يتوجهون من الأرض، فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي بكر يخبره بأن الله تعالى قد أنزل عليه آيات ينهأ فيها عن إخراجهم، فكبر أبو بكر وفرح، وقرأ الرسول عليه ما نزل، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قال أبو بكر: بلى يا رب إني أحب أن يغفر لي، وقد تجاوزت عما كان.

وذهب أبو بكر إلى بيته، وأرسل إلى مسطح وأصحابه، وقال: قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلت بكم ما فعلت إذا سخط الله عليكم، أما إذا عفا عنكم فمرحباً بكم. وجعل لمسطح ضعف ما كان له قبل ذلك.

ونفهم من الآية الكريمة أن أهل الفضل في الدين والخلق لا يقصرون في الإحسان إلى المسلمين فهم أهل سماحة وصفح، ونرى أن الله تبارك وتعالى حينما أمر أبا بكر بالإعطاء لقبه بأولي الفضل والسعة، كأنه سبحانه يقول له: أنت أفضل من أن تقابل إساءته بمثلها، وأنت أوسع قلباً من أن تقيم للدنيا وزناً، فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الإساءة، وهذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين.

ويعلق الرازي على قوله: ﴿وَلْيَعْمُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾^(١) فيقول: إن العفو قرينة التقوى، وكل من كان أقوى من العفو كان أقوى من التقوى، ومن كان كذلك كان أفضل لقول الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(٢).

والعفو والتقوى متلازمان وقد اجتمعا في أبي بكر، أما التقوى فلقوله سبحانه: ﴿وَسَيَجْزِيَنَّ اللَّهُ أَتَقَى﴾^(٣). وأما العفو فلقوله: ﴿وَلْيَعْمُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾. فنال الشرفين رضي الله تعالى عنه^(٤).



(١) سورة النور، الآية: ٢٢. (٢) سورة الليل، الآية: ١٧. (٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣. (٤) أخلاق القرآن، ج ٤، ص ٥٢-٥٩.

البحث الثامن عشر:

السخاء والجود

أختي المؤمنة:

انصني بهذين الخُلُقَيْنِ الكريمين، فقد أكَدَّ عليهما رسول الله ﷺ حيث رغب فيهما كثيراً.

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ اعْطِ مُتَّفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْسِيكًا تَلْفَاءً»^(١).

ويقول ﷺ: «إِنَّ مَلَكًا بِيَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَقُولُ: مَنْ يُقْرَضُ الْيَوْمَ يُجْرَى غَدًا، وَمَلَكٌ بِيَابٍ آخَرَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اعْطِ مُتَّفِقًا خَلْفًا وَاَعْطِ مُنْسِيكًا تَلْفَاءً»^(٢).
وأيضاً قال الله تعالى في حديث قدسي: «أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ».

وقال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبَدَّلَ الْفَضْلَ - أَي: مَا زَادَ عَلَى الْحَاجَةِ - خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكُهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامَ عَلَى كِفَافٍ - أَي: إِسْكَافِ الْكِفَايَةِ - وَابْتَدَأَ بِمَنْ نَعَوْ، وَالْيَدُ الْمُتْلِيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(٣).

وقال ﷺ: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا وَبِجَنِّيهَا مَلَكَانِ يُتَادِيَانِ: اللَّهُمَّ مَنْ أَنْفَقَ فَاغْنِيهِ خَلْفًا، وَمَنْ أَسَكَ فَاغْنِيهِ تَلْفَاءً»^(٤).

وقال ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤٤٢ «الفتح»، ومسلم ٢/ ٧٠٠، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٥/ ٣٣٣٣، من حديث أبي هريرة.

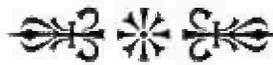
(٣) صحيح مسلم، ج ٢/ ٧١٨، من حديث أبي أمامة.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٧، وابن حبان ٢/ ٦٨٥، والحاكم ٢/ ٤٤٥، من حديث أبي الدرداء،

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، ووافقه الذهبي.

أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ، قَالَ: «فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ»^(١).

وقال ﷺ: «لَا تُؤَكِّمَنَّ فِتْوَاكَ عَلَيْكَ»^(٢). أي: لا تدخري وتمنعي ما في يدك فتقطع مادة بركة الرزق عنك.



(١) صحيح البخاري ٦٤٤٢ / ١١ «الفتح»، وأحمد ٣٨٢ / ١، والنسائي ١٢٥ / ٢، من حيث ابن مسعود.

(٢) صحيح البخاري ٢٠٩١ / ٥ «الفتح»، وصحيح مسلم ٧١٣ / ٢، من حديث أسماء.